


جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية خلال عهد الخليفة العباسي

المأمون (198هـ-813م / 218هـ-833م)

د/ محمد عيساوي 

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

aissaouim17@gmail.com

الملخص:

يتناول المقال جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية التي عرفها العصر العباسي الأول وعلى وجه أخص فترة خلافة المأمون؛ ذلك عبر تسليط الضوء على محاور ذات أهمية بالغة منها الحياة السياسية وأهم حركات التمرد التي عرفتها فترة الدراسة، أضف إلى ذلك التطرق لمسألة تشييع المأمون وفكره الاعتزالي وتأثير ذلك على الحياة العلمية والمذهبية، بالإضافة إلى معالجة بنية المجتمع العباسي ودور المرأة فيه.

الكلمات المفتاحية: المأمون، الحياة السياسية، العصر العباسي الأول، الاعتزال، المجتمع العباسي.

Summary:

The article deals with aspects of the political, social and scientific life of the first Abbasid period, and in particular the period of the succession of the Mamoun, by shedding light on the important axes of political life and the most important rebellions of the period of study. Al-Ma'mun and his idea of isolationism and its impact on scientific and sectarian life, in addition to addressing the structure of the Abbasid society and the role of women in it.

key words: al-Ma'mun, Political life, The first Abbasid period, seclusion, The Abbasid community.

مقدمة:

شهدت فترة حكم الخليفة العباسي المأمون العديد من الحوادث المهمة على مستوى الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والمذهبية، وشغلت تلك المحطات اهتمام المؤرخين المتقدمين، والباحثين المعاصرين على حدّ سواء، خصوصا ما تعلق بجانب الحياة العلمية والمذهبية، نظرا لعمق تأثيرها على الحياة الفكرية والعلمية المعاصرة. وهذا ما يوصلنا إلى إشكالية مهمة في هذا الصدد ألا وهي ما هي الخصوصية التي اتسم بها عصر الخليفة العباسي المأمون من حيث النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية والمذهبية؟

أولا/ ترجمة موجزة بالخليفة العباسي المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس القرشي الهاشمي العباسي أبو جعفر أمير المؤمنين وأمه أم ولد اسمها مراحل وكان مولده في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة تُوفي عمه الهادي وولي أبوه هارون الرشيد وكان ذلك ليلة الجمعة، وتولّى المأمون الخلافة في المحرم لخمس بقين منه، بعد مقتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة، واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر، وقد كان فيه تشيّع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة⁽¹⁾.

أما كونه على مذهب الاعتزال فإنه اجتمع بجماعة؛ منهم بشر بن غياث المريسي، فأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، وكان يُجِبُّ العلم، ولكن لم يكن له بصيرة نافذة فيه، فدخل عليه بسبب ذلك الدّاخل وراح عليه الباطل، ودعا إليه، وحمل الناس قهرا عليه، وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته⁽²⁾. وبخصوص تشييعه فقد روى ابن عساكر من طريق النضر بن شميل قال: دخلت على المأمون فقال كيف أصبحت يا نضر؟ قلت بخير يا أمير المؤمنين. فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دين يوافق الملوك، يصيبون به من دنياهم، وينقصون من دينهم. قال: صدقت. ثم قال: يا نضر: أتدري ما قلت في صبيحة هذا اليوم؟ قلت - أي النضر بن شميل-: أتى لي بعلم الغيب؟ فقال - المأمون- قلت:

أصبح ديني الذي أدينُ به ولست منه الغداة معذرا
حُبُّ علي بعد النبي ولا أشتم صديقنا ولا عمرا
ثم ابن عفان في الجنان مع الأ برار ذاك القتل مصطبرا
لا ولا أشتم الزبير ولا طلحة إن قال قائل غدرا
وعائش الأم لست أشتمها من يفترها فنحن منه برا⁽³⁾

وهذا المذهب ثاني مراتب التشيع، وفيه تفضيل علي على عثمان، وقد قال بعض السلف، والدَّارَ قُطَني من فضل عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، يعني في اجتهادهم ثلاثة أيام، وقال الحافظ ابن كثير: "وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: "لا أوتي بأحد فضّلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري، وتواتر عنه أنه قال: خير الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان⁽⁴⁾. وكانت وفاة المأمون في يوم الخميس وقت الظهر - وقيل: بعد العصر - لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثمان مائة وعشرون ومائتين، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهرًا، وصلى عليه أخوه المعتصم⁽⁵⁾.

ثانيا/ الحياة السياسية خلال عهد المأمون:

مرت الحياة السياسية خلال عهد المأمون بتطورات مهمة، ومن أبرزها مبايعة علي الرضا بولاية العهد، وظهور العديد من حركات التمرد، و من أشهرها حركة بابك الخرمي، والتي سببها بصفة موجزة فيما يلي:

1- مبايعة علي الرضا بولاية العهد (201هـ):

في سنة إحدى ومائتين بايع المأمون لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أن يكون وليَّ العهد من بعده وسماه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وطرح لبس السواد ولبس الخُضرة⁽⁶⁾، وتم ذلك بخراسان، وألزم جُنده بذلك وكتب

بذلك إلى الآفاق والأقاليم وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين وذلك أن المأمون رأى أن عليا الرضا خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في علمه ودينه فجعله ولياً عهداً من بعده. ونتيجة لذلك ثار بنو العباس، لاسيما أهل بغداد نوثاروا وخرجوا على المأمون، وطردوا الحسن بن سهل من بغداد، وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة⁽⁷⁾. ولكن لما وصل المأمون - في سيره من خراسان إلى العراق - إلى مدينة طوس، فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياماً من شهر صفر سنة ثلاث ومائتين، فلما كان في آخر الشهر أكل علي بن موسى الرضا عنباً فمات فجأة، فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد، وأسف عليه أسفاً كثيراً فيما ظهر⁽⁸⁾.

2- حركة بابك الخُرُمي: (201هـ - 222هـ)

هي أخطر حركة دينية في المظهر، سياسية في الغاية عرفتها السلطة العباسية منذ قيامها وتتميز عن حركات التمرد السابقة بسعة انتشارها وتنظيم دعايتها وبراعة القيادة فيها وتوحيد خططها وتواصلها السياسي مع غير الفرس على نطاق واسع، لكن في منطلقاتها وأسسها تشبه الحركات السابقة⁽⁹⁾. ومن المبادئ التي قامت عليها هذه الحركة هي "الحلول" إذ أن بابك "كان يقول لمن استغواه إنه إله. "ومنها الاعتقاد في التناسخ⁽¹⁰⁾ والرجعة، وكانوا يدعون إلى "الاشتراكية"⁽¹¹⁾. وحاول البابكيون حل مشكلة التفاوت في توزيع الثروة بين الملاكين الكبار والفلاحين، وذلك بنزع الأراضي من أولئك وتوزيعها على الفلاحين. كما أنه من الناحية العنصرية، فإن الحركة البابكية الخرمية هي تعبير عن روح الكراهية التي اتسم بها أقوام من الفرس ضد الإسلام، وربط بابك نفسه بأبي مسلم الخراساني "فادعى أنه من نسل ابنته فاطمة" مما يدل على "النزعة الفارسية القديمة"⁽¹²⁾.

واتبع بابك سياسة عسكرية قائمة على تقويض الحصون وتخريبها حتى يتم إضعاف دفاعات العباسيين كما ركز جهوده على قطع خطوط الإمداد ونهب قوافل التموين حتى يوهن هجماتهم، وانتهج أسلوب نصب الكمائن، وساعده في ذلك كله معرفة المسالك الجبلية للمنطقة، وكل هذه العوامل أسهمت في فشل الحملات المتعددة التي أرسلها الخليفة المأمون للقضاء على

هذه الحركة، حتى أوصى لأخيه المعتصم بمواصلة التصدي لهذه الحركة قبيل وفاته (13).

ويمكن حسب الباحث عبد العزيز الدوري اعتبار حكم المأمون نهاية العصر العباسي

الأول سياسيا وذلك للاعتبارات التالية:

- كان حكم المأمون نهاية فترة النفوذ الإداري والسياسي للفرس في دواليب السلطة العباسية وقد خلفتها فترة نفوذ الأتراك.

- بعد انتهاء فترة خلافة الخليفة المأمون بدأت سيادة العناصر العسكرية في تسيير دفة الحكم وتقرير سياسة الدولة، بعد أن كانت هذه العناصر ثانوية أو مسيرة، وتخضع لسلطة الوزراء والكتّاب.

- كما أنه بعد انقضاء خلافة المأمون انتهى التعاون الوثيق بين الخراسانيين والعباسيين، وبدأ طور نشوء الإمارات المستقلة كالتاهرية، والصفارية والسامانية.

- كان نقل العاصمة إلى سامراء رمزا لسياسة جديدة وخرقا للتقاليد العباسية التي كانت ترى في بغداد معقل السلطان العباسي (14).

ثالثا/ الحياة الاجتماعية خلال عهد الخليفة العباسي المأمون:

كان المجتمع العباسي في هذا العصر مزيجا من العرب والعجم، فمن العرب المصريون في الشمال واليمنيون في الجنوب، ومن الفرس الخراسانيون الذين نصرّوا المأمون على أخيه الأمين، كما ساد الترك من أيام المعتصم بالله. ويضم المجتمع العباسي عدّة طبقات في القرن الثالث هجري، يأتي في أعلى الهرم السكاني الحكّام ثم يليهم العلماء والتجار وأخيرا العامة، كما كان من طبقة الشعب في ذلك العصر أهل الذمة وهم اليهود والنصارى.

وعاش العباسيون حياة البذخ والترف وتفنّوا في الملابس المصنوعة من الأقمشة الموشاة بالذهب والفضّة المرصّعة بالجواهر، والنساء في القصور يلبسنّ الأزياء الثمينة ذات الألوان المتباينة المحلّاة بخيوط الذهب والفضّة وعلى رؤوسهنّ العصائب المرصّعة بالياقوت والأحجار الكريمة مع التزيّن بالقلائد والكلائل والتيحان و المناطق أو الخلائل الثمينة، ومال الخلفاء إلى اللّهو والإسراف والتفنّن في ملاذ الطعام، ومن مظاهره ما ذكره ابن كثير وغيره في أمر زواج المأمون ببوران بنت

الحسن بن سهل حيث أُشْعِلَتْ بين يديه شموع العنبر، وُثِرَ على رأسه الدرُّ والجوهر فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر وقد كان عدد الجوهر منه ألف دُرَّة (15).

كما شهدت الحياة الاجتماعية خلال فترة خلافة المأمون بعض المشاكل ومنها ما حدث ف سنة إحدى ومائتين (201هـ) حيث عمّ البلاء بالعيارين والشُّطَّار، والفساق ببغداد وما حولها من القرى، حيث كانوا يأتون الرجل يسألونه مالا - يقرضهم أو يصلهم به - فيمتنع عليهم فيأخذون جميع ما منزله، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان، ويأتون أهل القرية فيستاقون ما فيها من الأنعام، ويأخذون ما شاؤوا من الغلمان والنسوان، ولكن العامة استطاعت ردّ شرهم وتصدوا لهم، ومنعواهم من العبث في الأرض فسادا، واستقرت الأمور كما كانت (16).

ولا يفوتنا أن نتكلم هنا عن مكانة المرأة في القصر العباسي، ونقصد في هذا المقام زبيدة (ت: 216هـ) امرأة هارون الرشيد وابنة عمه، وهي أم جعفر أمة العزيز، الملقبة زبيدة بنت جعفر بن المنصور، أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، القرشية الهاشمية، العباسية امرأة هارون الرشيد، وأحب الناس إليه في زمانها، مع ما كان معها من الحظايا والزوجات.

وإنما لُقِّبت بزبيدة؛ لأن جدّها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويقول لها: إنما أنت زُبْدَة زبيدة، فغلب ذلك عليها، فلا تُعرف إلا به وأصل اسمها أمة العزيز، وكانت من الجمال والمال والخير والديانة على جانب، ولها من الصدقات والأوقاف ووجوه القربات شيء كثير جدا. وهنّات زبيدة المأمون بالخلافة حين دخل بغداد فقالت له: "لقد هنّأت نفسي بما عنك، قبل أن أراك، ولن كنت فقدت ابنا خليفة، لقد عوّضت ابنا خليفة لم ألدّه، وما خسرت من اعتاض مثلك، ولا تُكِلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرا على ما أخذ، وإمتاعا بما عوّض" (17). وذكر القاضي ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية، كلهن يحفظن القرآن الكريم، ووُرِدَ كل واحدة عُشْر القرآن وكان يُسمَعُ لهن في القصر دَوِيٌّ كَدَوِيّ النحل (18).

وهناك نماذج أخرى من النساء الصالحات اللواتي لعبن دورا في المجتمع ومنهن السيدة نفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، القرشية الهاشمية (ت: 208هـ).

(، وقد دخلت الديار المصرية مع زوجها المؤمن؛ إسحاق بن جعفر الصادق، فأقامت بها، وكانت ذات مال وإحسان إلى الناس والجذمي والزمني والمرضى وعموم الناس، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير ولما ورد الإمام الشافعي مصر أحسنت إليه، ولما تُؤفِّت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية، فمنه أهل مصر من ذلك، وسألوه أن يتركها عندهم، فدفنت في المنزل الذي كانت تسكنه بمحلة كانت تعرف قديما بدرب السباع، بين مصر والقاهرة اليوم، وقد زالت تلك المحلة فلم يبق سوى قبرها، وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة، فيما ذكره القاضي شمس الدين بن خلكان في "وفيات الأعيان"، وقال: "ولأهل مصر فيها اعتقاد." وقال الحافظ ابن كثير مُعَبِّباً على قول ابن خلكان: "وإلى الآن، وقد بالغ العامة في أمرها كثيرا جدا، ويُطلقون فيها عبارات بشعة، فيها مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك، وألفاظا كثيرة ينبغي أن يعرفوا بأنها لا يجوز إطلاقها في مثل أمرها، وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين، وليست من سلالته، والذي ينبغي أن يعتقد فيها من الصلاح مما يليق بأمثالها من النساء الصالحات، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام، ومن زعم بأنها تفك من الخشب، أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك. رحمها الله وأكرمها وجعل الجنة مُنزلها " (19).

رابعا/ الحياة العلمية والمذهبية خلال عهد المأمون:

شهدت الحياة العلمية في القرن الثالث هجري تطورا كبيرا وأصبح العامة والخاصة يهتمون بدراسة أنواع العلوم المختلفة، ونشأ فيه أئمة عظام خدموا العلم الشرعي خدمة عظيمة وكان من بعدهم عائلة عالية عليهم وساعد على هذا تشجيع الخلفاء للعلماء فعقدوا لهم المجالس وأجزلوا لهم العطايا والهدايا، فكان المأمون عالما يحب العلم وأهله ويرغب في طلبه، وانقسمت العلوم في هذا العصر إلى علوم نقلية وتشمل الحديث والتفسير والفقہ وعلم الكلام وعلوم عقلية أو حكومية وتشمل الفلسفة والهندسة والطب والكيمياء والجغرافيا والموسيقى، والتاريخ (20).

1- حركة الترجمة في عهد المأمون:

تعود بدايات ترجمة الفلسفة اليونانية، إلى زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (136-158هـ)، الذي أمر بترجمة بعض الكتب القديمة. ثم توسع مجال الترجمة زمن الخليفة هارون الرشيد (ت193هـ) عندما أمر الطبيب النصراني يُوحنا بن ماسويه، بترجمة الكتب القديمة التي عثر عليها بمديني أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم، وعيّنهُ أمينا عاما على عملية الترجمة من اللغات القديمة إلى اللغة العربية.

ثم توسعت أكثر في أيام الخليفة المأمون المعتزلي المتشيع (218-198هـ)، بشكل أكبر ومنظم، فأرسل إلى ملوك بلاد الروم يطلب منهم الكتب القديمة، ليرجمها إلى اللغة العربية، فأرسلوا إليه كتباً كثيرة، من مصنفات فلاسفة اليونان وغيرهم من العلماء (21).

ويذكر العلامة جلال الدين السيوطي عن الصلاح الصفدي أنه لما "هاذن المأمون بعض ملوك النصارى - حسب ظن السيوطي: صاحب جزيرة قبرص - كتب - أي المأمون - يطلب منه خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصّه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إليه، إلا بطراق واحد - مفرد بطارقة - فإنه قال: جَهَّزها إليهم فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها" (22).

ومعظم الذين تولّوا ترجمة الكتب القديمة إلى اللغة العربية، هم من أهل الذمة، وقلة منهم من المسلمين، كالفيلسوف يعقوب الكندي، وأما الذميون فمنهم: يوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق، وإسحاق بن حنين، وحبيش بن الأعسم، وثابت بن قرّة الصابئ، ويحيى بن البطريق، وإقليدس بن ناعمة، وزروبا بن ماجوه الحمصي، وآوي بن أيوب، واصطفن بن باسيل، وصليبا أيوب الرهاوي، وداريع الراهب، وغيرهم كثير.

وأما ما ترجمه هؤلاء من علوم الأوائل، فتأتى الفلسفة اليونانية في مقدمتها، وكانت تضم أربعة علوم رئيسية، أولها المنطق، وثانيها الطبيعيات كالحیوانات، والنباتات، والأجسام والمحسوسات. وثالثها الإلهيات - الميتافيزيقا - وهي خاصة بغيبات ما وراء الطبيعة. ورابعها المقادير، وتسمى

أيضا: التعاليم، وتشمل عدة علوم، كالهندسة، والأثماطقي -العدد -، والموسيقى والهيئة -علم الفلك -.

وهناك تساؤلات جوهرية مهمة جدا تتعلق بقضية ترجمة العلوم القديمة إلى اللغة العربية، أثارها الباحث المحقق خالد كبير علال الجزائري وأجاب عنها إجابة وافية في دراسته القيمة الموسومة بـ "مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية خلال العصر الإسلامي الوسيط" ومنتقي منها سؤالين مهمين جدا ألا: هل ترجمة العلوم القديمة كانت ضرورية للمسلمين؟ وهل تمت ترجمتها بطريقة سليمة نافعة؟

فبخصوص التساؤل الأول فإن الباحث خالد كبير ذهب إلى أن " ترجمة تلك العلوم إلى اللغة العربية لم تكن ضرورية مطلقا؛ وإن كان الإسلام لا يحرم على أهله الانتفاع بما عند غيرهم من خيرات ومحاسن، وتجارب مفيدة وعلوم نافعة، لكن مع ذلك فإن ترجمة تلك العلوم لم تكن ضرورية للمسلمين، فقد عاشوا بدونها قرنين من الزمن. ولو لم تترجم تلك العلوم إلى اللغة العربية لمت وترعرعت العلوم الطبيعية والرياضية في المجتمع الإسلامي نمو طبيعيا، لأنها علوما ضرورية لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات البشرية. وقد كانت أصولها قائمة في المجتمع الإسلامي، نشأت في ظل الإسلام نحو قرنين من الزمن، استجابة لأمرين أساسيين، أولهما أن الإسلام يبحث على كل العلوم النافعة، ويدعو إلى النظر في الأفاق والأنفس، وفي كل مظاهر الكون لاكتشاف قوانينه وتسخيرها لخدمة الإنسان، هذا فضلا على أن بعض عباداته وأحكامه لا بد لها من رياضيات وفلك، كالموارث وأوقات الصلاة والحج. وثانيهما أن الحاجة لتلك العلوم حاجة ماسة، تجعل نشأتها في المجتمع الإسلامي - الواسع المتنوع الأعراق والأجناس - أمرا ضروريا دون الحاجة إلى ترجمة العلوم القديمة " (23).

وأما بالنسبة للتساؤل الثاني، فأكد الباحث خالد كبير بأن: "تلك الترجمة تمت بطريقة خاطئة، وأكبتها سلبيات كثيرة، من ذلك أن الحاجة لترجمة علوم الأوائل لم تصدر عن حاجة داخلية حقيقية للمجتمع، وإنما صدرت عن رغبة أفراد قليلين جدا على رأسهم فرد معتزلي متفلسف مبهور بعلوم الأوائل، هو الخليفة العباسي المأمون. كما أن عملية الترجمة لم تتم بأمر من علماء

الأمة، ولا بإشراف منهم، ولا تمت على أيدي مسلمين سنيين ملتزمين أتقياء متخصصين في الترجمة وعلوم الأوائل، وإنما معظم الذين تولوها هم من أهل الذمة. ونحن لا نثق في هؤلاء، ومن حقنا ألا نثق فيهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (24) **وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** (25).

ومما يبين أن نوايا هؤلاء المترجمين لم تكن خالصة، أنهم ترجموا أمورا تتناقض مع الإسلام كلية، وتدمر المجتمع الإسلامي تدميرا، ولا يجوز ترجمتها شرعا، على رأسها إلهيات اليونان المليئة بالضلالات والشركيات، فلو تولى الترجمة مسلمون أتقياء ما ترجموا ذلك، وإن ترجموها فإنهم يردون عليها، ويحذرون منها، ومنها أيضا أن تلك العلوم تُرجمت دون تمحيص و تمييز بين صحيحها من سقيمها، وهذا خطأ فادح صاحب عملية الترجمة؛ فكان من اللازم أن تُترجم العلوم الضرورية النافعة، كالطب والهندسة، مع الشروح والمقدمات والتنبيهات والتحذيرات؛ وأن لا تُترجم العلوم الضارة المعارضة للشرع، ككتب السحر والشعوذة، وإلهيات اليونان ومنطقهم " (26).

ولكن في مقابل هذا الرأي نجد أن هناك عددا الدراسات والأبحاث التاريخية التي تنفي وتمدح صنيع الخليفة العباسي المأمون لقيامه بترجمة العلوم القديمة، ولكن الباحث المحقق خالد كبير أجاد في إثبات تحافت هذا الرأي بقوله: " وقد يرى بعض الناس في ترجمة العلوم القديمة إلى اللغة العربية عملا حضاريا إيجابيا، وهذا رأي وجيه فيه جانب كبير من الصحة، لو أن العملية تمت بطريقة صحيحة وعلى أيدي أمينة، وبما أنها تمت بطريقة خاطئة مليئة بالنقص والسلبات فعدمها أولى من ترجمتها" (27).

2- المعتزلة وأثرها في محنة خلق القرآن:

كان لاتصاله ببعض الشخصيات المعتزلية البارزة في مطلع خلافته ثم اتخاذهم ندماء ووزراء وخاصة له دور كبير للمأمون ليتعرف على المذهب الاعتزالي من أصوله وعلمائه وكان من أهم هذه الشخصيات "الهذيل محمد بن الهذيل العلاف" رأس المعتزلة (ت227هـ أو ت235هـ على خلاف) و "أبو عبد الرحمان بشر بن غياث المرسي" (ت218هـ-833م) و "أبو معن ثمامة

بن أشرس النميري البصري " المتكلم (ت 213هـ-829م) وقاضي القضاة " أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المعتزلي " (ت 240هـ-855م).

ومن أبرز ملامح التأثير الاعتزالي على شخصية المأمون هو "القول بخلق القرآن" التي نشأت أساساً من الأصل الأول من أصول المعتزلة الخمسة وهو التوحيد⁽²⁸⁾ (أي نفي الصفات الإلهية)، وهو مرتبط كذلك بالأصل الثاني وهو العدل⁽²⁹⁾ (أي نفي القضاء والقدر) وقد مرت مسألة القول بخلق القرآن في عهد الخليفة المأمون بثلاث مراحل: (30).

- أولها مرحلة الاقتناع الشخصي دون محاولة إظهاره للناس، ولعلّ ما يؤكد ذلك ما رواه الحافظ المؤرخ الحنبلي عبد الرحمان بن علي أبو الفرج بن الجوزي (ت 597هـ/1201م) وغيره أنّ المأمون قال: "لولا مكانة يزيد بن هارون (أبو خالد السلمى الواسطي شيخ الإسلام ت 206هـ/822م) لأظهرت القول بخلق القرآن، فقال بعض جلسائه: ومن يزيد بن هارون حتى يتّقيه أمير المؤمنين؟ فقال المأمون: إنّي أخاف إن أظهرته أن يردّ عليّ فيختلف الناس وتكون فتنة، وأنا أكره الفتنة" (31).

- والمرحلة الثانية: هي إظهار المأمون للقول بخلق القرآن ونشره بين الناس دون أن يحملهم إلى القول به سنة 212هـ/828م، قال الفقيه الشافعي تاج الدين السبكي الأشعري (ت 771هـ/1370م): "... فاشتمأت منه النفوس وكادت الفتنة تعمّ البلاد، ولم يتم له من ذلك ما أراد فكفّ عنه إلى سنة (218هـ/828م) ". ولعلّ كلمة "أظهر" بالذات -والتي اتّفقت أغلب المصادر على استعمالها في هذه الحادثة- لها دلالة خاصّة في هذا المقام فهي لا تنفي أنّ المأمون في المرحلة السابقة كان على عقيدة المعتزلة في خلق القرآن بل تشير فقط إلى أنّ المأمون لم "يظهر" هذا الرأي للناس ويعلنه عليهم إلا في سنة 212هـ/828م (32).

- والمرحلة الثالثة: هي محاولة فرض هذا الرأي على عقائد الناس، وبدأت في الشهور الأخيرة من حياة المأمون، وقد مهّد المأمون لهذه الخطوة بعزله لقاضي القضاة يحيى بن أكتم أبي محمد المروزي ثم البغدادي (ت 242هـ/857م) سنة 217هـ/832م، وتعيين المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد مكانه، والذي كانت له مكانة كبيرة وكلمة مسموعة لدى المأمون (33).

وكانت أول شرارة لهذه المحنة حين أرسل المأمون وهو بالرقّة إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي - في ربيع الأول سنة 218هـ - كتابه الأول الذي بدأه بالسبب الذي ألجأه إلى حمل الناس على ذلك، وهو أنّ خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين وإقامته والعمل بالحق لرعيته وتصحيح عقائد الناس، وتقويم ما يلحق بها من زيغ، لأنّ السواد الأعظم من الرعيّة محروم من نعمة النظر والتثبت، ومن هنا فإنّهم آمنوا بقدّم القرآن فأدّى بهم ذلك إلى المساواة بين الله وخلقته: " وقد عرف أمير المؤمنين أنّ الجمهور الأعظم و السواد الأكبر من حشو الرعيّة وسفلة العامة ممّن لا نظر ولا رويّة ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، والاستضاءء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله... وذلك أنّهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين واتّفقوا غير متعاجمين على أنّه قدّم أول لم يخلقه الله و يحدّثه و يخرّعه... " (34). وما دام أن شخصية بشر بن غياث المريسي أسهمت إسهاماً كبيراً في تلقي المأمون لفكرة " خلق القرآن " فيجدر بنا التعرف على هذه الشخصية: من هو بشر المريسي وما هو دوره في هذه المحنة؟

تتعلق محنة خلق القرآن بعدد من الشخصيات الاعتزالية ومن بينها بشر بن غياث بن أبي كريمة، أبو عبد الرحمان المريسي، المتكلم شيخ المعتزلة، وأحد من أضل المأمون، وقد كان هذا الرجل ينظر أولاً في شيء من الفقه، وأخذ عنه القاضي أبي يوسف، وروى الحديث عنه، وعن حماد بن سلمة، وسفيان بن عيينة وغيرهم، ثم غلب عليه علم الكلام، وقد نهى الإمام الشافعي عن تعلمه وتعاطيه، فلم يقبل منه. وقال الإمام الشافعي: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك بالله أحب إليّ من أن يلقاه بعلم الكلام. وقد اجتمع بشر بالشافعي عندما قدم الشافعي ببغداد.

وقال القاضي ابن خلكان: " جرد القول بخلق القرآن، وحكي عنه أقوال شنيعة، وكان مرجئياً، وإليه تنسب المريسية من المرجئة، وكان يقول: إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، وإنما هو علامة للكفر، وكان يناظر الإمام الشافعي. وكان لا يحسن النحو، وكان يلحن لحنا

فاحشا ويقال: إن أباه كان يهوديا صبًاغا بالكوفة، وكان يسكن درب المريس ببغداد، والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر. قال: ومريس ناحية ببلاد النوبة تهب عليها في الشتاء ريح باردة. وقال الحافظ ابن كثير بعد سياق ترجمة ابن خلكان: "ثم راج بشر المريسي عند المأمون وحظي عنده، وقدّم في حضرته، ونَقَّق سوقه الكاسد، واستُجيد ذهنه البارد" (35). وبدأ امتحان المأمون للقضاة والشهود والمحدثين بالقرآن في سنة ثمان عشرة ومائتين (218هـ) (36)، فمن أقرّأه مخلوق مُحدّث خَلَى سبيله، ومن أبي أعلمه به ليأمره فيه برأيه، وطول كتابه بإقامة الدليل على خلق القرآن وترك الاستعانة بمن امتنع عن القول بذلك (37).

وصية الخليفة المأمون ولاية العهد للخليفة المعتصم:

بعد فترة خلافة دامت حسب المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ) عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما (38)، خلع المأمون أخاه القاسم من العهد بعد انتصاره على الأمين، وكتب بذلك منشورا في ربيع الأول سنة 198هـ، وفي مرضه الأخير تجاوز ابنه العباس وعهد لأخيه أبي إسحاق المعتصم، وأوصاه بعدة أمور في وصية طويلة ومنها:

- مواصلة القول بخلق القرآن.
- الاهتمام بشؤون الرعية.
- التعجيل بالرجوع إلى العراق.
- الاهتمام بالثغور والعواصم وبمن فيهم من المقاتلة.
- الجد في محاربة الحركة البابكية الخرمية.
- ألا يستوزر أحدا.
- الرفق بالعلويين (39).

ويرى الباحث عبد العزيز الدوري أن هذه الوصية لها أهمية، بحيث أنها أعطت خلاصة تجارب المأمون، ونظرته إلى السياسة الرشيدة التي تحل بها المشاكل التي كانت تواجه الدولة في آخر أيام حياته (40).

خاتمة:

وبناء على ما تقدم من جمع المادة العلمية المتعلقة بالبحث فإنه يمكن الخروج ببعض الاستنتاجات نوردتها فيما يلي:

دور العامل السياسي في توطيد الأمن والاستقرار، وهذا ما يتأكد منه الباحث خلال دراسة حركة الشطار والعيارين التي استفحل خطرهما على المجتمع بعد حرب الأخوين الأمين والمأمون، واستقرار هذا الأخير في خراسان بعد موت أخيه.

مدى تأثير المرأة في الحياة الاجتماعية من خلال أعمال البر والإحسان التي انعكست إيجاباً على الفرد خصوصاً على ذوي الحاجة، وتجسد ذلك في مثالين: زبيدة زوج هارون الرشيد، والسيدة نفيسة رحمهما الله.

الأثر العميق للمعتزلة في عقيدة المأمون، الأمر الذي أدى إلى بلورة كثير من السلوكات المذهبية أهمها التمكين لعقيدة الاعتزال في دواليب السلطة العباسية طيلة عهد المأمون، مروا بفترة المعتصم، وانتهاء بخلافة الواثق.

الانعكاسات السلبية لظاهرة الترجمة التي لم تتم وفق أسس علمية رصينة، من شأنها غريلة ما تحتويه العلوم القديمة من انحرافات وسلبات.

ضرورة تفعيل النقد العلمي البناء للعلوم القديمة التي تمت ترجمتها طيلة العصور العباسية الأولى لاسيما عصر المأمون، لتمييز النواحي الإيجابية والسلبية.

الهوامش:

- (1) ابن كثير: البداية والنهاية، اعتنى بها وخرج أحاديثها محمود بن الجميل، دار الإمام مالك، البلدة، الجزائر، 1427هـ / 2006، ج 06، ص 254، 255.
- (2) المصدر نفسه، ج 06، ص 256.
- (3) المصدر نفسه، ج 06، ص 257.
- (4) المصدر نفسه، ج 06، ص 257.
- (5) المصدر نفسه، ج 06، ص 261.
- (6) عاد المأمون إلى لبس السواد بعد دخوله بغداد سنة أربع ومائتين (204هـ)، ويقال إن المأمون مكث يلبس الخضرة بعد قدومه بغداد سبعا وعشرين يوماً نفسه: ج 06، ص 228.

- (7) ابن كثير: المصدر السابق، ج 06، ص 224؛ الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1424هـ / 2003م، ج 05، ص 07.
- (8) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، ت تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1976 م، ج 08، ص 568؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج 06، ص 226.
- (9) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، الطبعة الثالثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2012م، ص 234.
- (10) ابن كثير: المصدر السابق، ج 06، ص 225.
- (11) عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 234.
- (12) محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة العباسية، الطبعة السابعة، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1430 هـ / 2009م، ص 132.
- (13) محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 134.
- (14) عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 226.
- (15) ابن كثير، المصدر السابق، بتحقيق بشار عواد معروف، ج 11، ص 43.
- (16) ابن كثير: المصدر السابق، تحقيق محمود بن الجميل، ج 06، ص 224.
- (17) ابن كثير، المصدر السابق، بتحقيق بشار عواد معروف، ج 11، ص 57؛ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1412هـ / 1992م، ج 10، ص 276، ص 278.
- (18) ابن كثير، المصدر السابق، بتحقيق بشار عواد معروف، ج 11، ص 57.
- (19) ابن كثير: المصدر السابق، بتحقيق هاني الحاج، ج 06، ص 240، 241.
- (20) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ط 10، دار الكتاب، بيروت، (د.ت)، ج 02، ص 12.
- (21) خالد كبير علال: مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، دار المحتسب، 2008، ص 06، 07.
- (22) جلال الدين السيوطي: صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام مجمع البحوث الإسلامية " سلسلة إحياء التراث الإسلامي، السنة الأولى، الكتاب الأول، دون تاريخ للنشر، ج 01، ص 40.
- (23) خالد كبير علال: المرجع السابق، ص 122، 123.
- (24) سورة البقرة/120.
- (25) سورة المائدة /51.
- (26) خالد كبير علال: المرجع السابق، ص 124.

- (27) نفسه: ص 125.
- (28) البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد: الفرق بين الفرق، الطبعة الأولى مكتبة الإمام الوادعي، دار عمر بن الخطاب، 1434هـ/ 2012 م، ص 117.
- (29) الهمداني عبد الجبار المعتزلي، شرح الأصول الخمسة، دار موفم للنشر، 1990 ج 1 ص 77
- (30) بن لوصيف سمير: قضية خلق القرآن، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في التاريخ والجغرافيا، إشراف الأستاذ الدكتور خالد كبير علال، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2005، 2006، ص ص 33، 31.
- (31) بن الجوزي عبد الرحمن، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ط3، دار الآفاق الجديدة، 1982، ص 309، 310.
- (32) السبكي جلال الدين، طبقات الشافعي الكبرى، ت. محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الخلو، ط2 هجر للطباعة والنشر، مصر، 1992، ج 02، ص 57.
- (33) بن لوصيف سمير: المرجع السابق، ص 33.
- (34) الطبري، المصدر السابق، ج 7، ص 519.
- (35) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 06، ص 262.
- (36) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: المصدر السابق، ج 08، ص 631.
- (37) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407هـ/ 1987م، ج 06، ص 03
- (38) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: المصدر السابق، ج 08، ص 650.
- (39) أورد المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري نص الوصية في كتابه كاملا أنظر: الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: المصدر السابق، ج 08، ص ص 647، 650.
- (40) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 224.